تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

لا يزال سؤالُ النهضة العربية مطروحًا على بِسَاط البحث والمناقشة منذ أن أدرك عالمُنَا العربيُّ تخلُّفه الحضاريَّ إلى هذه اللحظة التي يحياها في ظلِّ صراعات مؤرِّقة وتحولات عالمية فارقة. وما زالت الأقلام والدراسات تتعاور هذا السؤال، وهو سؤال متشعِّب يبحث في رصد مظاهر التأخُّر، وأسبابه، وإمكانات تجاوزه، وذلك على تفاوتٍ في الرؤى والتوجُّهات الفكرية.

ورغم الزَّخْم الفكري والحرَكَي الذي رافق النهضة والتحديث في أول الأمر، فإنه سرعان ما وقعت الانتكاسةُ التي خلَّفت فجوةً كبيرةً بين عهد النهضة الأول وبين ما آلَ إليه أمرُها الآن، وهذا ما يقتضي إعادة النظر في ذلك الحراك وقراءته قراءةً فاحصةً تكشف عن الاتجاهات والمؤسسات والشخصيات الفاعلة فيه، وتكشف كذلك عن السلبيات والعوائق التي أعاقته على المستويين الفكري والعملي.

ولعل من أبرز قضايا النهضة التي تطلبت الفحص وإعادة النظر **قضية التعليم**؛ لجليل شأنها، وعظيم خطرها، وأثرها الواضح في التحديث وبناء القوميات. ولا يخفى أن الفشل الذي مُني به جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده يُعزى إلى استفراغهما كامل جهدهما في السياسة ومناوأة السلطات، وذهولهما عن قضية التعليم، مفتاح النهضة الحقيقي وملاكها. لقد استطاع علي باشا مبارك تحقيق المعادلة الصعبة حين نفَّذ برنامجه الإصلاحي دون مناوأة السُّلْطة، وقد أحسن عندما استعان على تنفيذه بالأزهر الذي كان يعارض التحديث، وبذلك لم يُهدر جهوده في مناوأة السلطة أو في مجادلة الرافضين للتحديث. وقد أُعجب الإمام محمد عبده بفكرة دار العلوم التي استحدثها علي مبارك، وصرَّح في غير مناسبة بأهميتها في الحياة التعليمية والثقافية في مصر. ثم كان أن صارت هذه المدرسة إحدى المدارس العليا التي مثَّلت النواة الحقيقية للجامعة المصرية في المستقبل.

لقد كانت دارُ العلوم تُشكِّل مدرسة فريدة ذات ملمح علميّ متميز وتكوين فكريّ خاصّ، وبنية اجتماعية متلاحمة، ترى الإصلاح والتحديث العلمي والتربوي وسيلتها الأولى للنهوض والارتقاء، وتنطلق في ذلك من ارتباط وثيق بالتراث والهوية، وانفتاح واعٍ على الغرب ومعارفه الحديثة. ورغم أهمية دار العلوم ودورها البارز في التحديث وتوسطها الفاعل بين التعليم الدِّيني والمدني، فقد تنكَّر لها التنويريون من لدن طه حسين حتى أيامنا هذه، كما تجاهلتها الدراساتُ التاريخيةُ والفكريةُ المعنيَّة بالنهضة؛ بل ما زالت بعضُ وسائل الإعلام المعاصرة تهاجمها، وتنسب لها ما لا يتسق مع طبيعتها ورسالتها وتاريخها. ولهذا مسَّت الحاجةُ إلى دراسات علمية جادة تدفع هذا التجاهل وتكسر الصمتَ المريب، وتكشف وجه الحقيقة حتى تجد الأسئلةُ جوابَها الصحيح. والحقُّ أن هذه الحالة كانت دافعًا قويًّا ومقنعًا لدراسات غربية تمحَّضت لمعالجة النهضة المصرية في عمومها، وعكفت على دراسة حالة دار العلوم على وجه الخصوص، ومن هذه الدراسات كتاب «**العلوم الإسلامية وبناء مصر الحديثة**» لهيلاري كالمباش المؤرخة الثقافية والاجتماعية، والأكاديمية المختصَّة في دراسات الشرق الأوسط.

إن هذا الكتاب يتخذ من مدرسة دار العلوم وخريجيها منظورًا يُطلّ منه على ما شهدته مصرُ من تحولات اجتماعية وثقافية في الحقبة الممتدَّة من عام ١٨٧١ حتى عام ١٩٥٢م. وتوسل إلى ذلك بضفيرة من النظريات والمقولات المنهجية يسَّرت له مقاربة فاعلة جديرة بالتأمُّل والإعجاب أعانته على تفسير تلك التحولات؛ فقد استعانت المؤلِّفة ببعض نظريات **بورديو** الاجتماعية مثل: رأس المال، والهابيتوس (Habitus)، كما أفادت من **فريدريك بارث** في الحدود الاجتماعية الثقافية، ومن بعض المفاهيم النقدية لدى الفيلسوف الروسي **باختين**، كمفهوم «التهجين»، وهو مفهومٌ محوريٌّ أفاد في دراسة الحالة الدرعمية التي اتسمت بالبينية والتهجين، هذا فضلًا عن مفاهيم أخرى، كمفهومَي مركزية السمع ومركزية البصر في مقاربة الاتجاهات التعليمية السائدة.

لقد توسلت الكاتبة بهذا المنهج المركَّب للقيام بأمرين اثنين؛ **أحدهما**: ربط

المؤسسات بالأفراد، والطوائف الاجتماعية، ومفاهيم الأُمَّة، **والآخر**: بيان موضع هذه الكيانات من البيئة المادية والمحيط الاجتماعي الثقافي. وقد أتاحت هذه المقاربةُ في استجلاء أنشطة الدراعمة بعض الرُّؤى المهمَّة عن الكيفية التي يصبح لبعض الأفكار والممارسات والأشخاص من خلالها سلطان مؤثِّر وحُجِّيَّة مرجعيَّة، فضلًا عن بيان أسباب ذلك.

وقد مهَّدت المؤلِّفة بخلفية تاريخية، وكشفت عن مقاربتها التي نظرت إلى التحديث بوصفه طائفةً من المشروعات أطلقتها أطراف متنوعة. وبيَّنت وسائلها المنهجية في دراسة دور المؤسسات والطوائف الاجتماعية في التعجيل بالتغيير الاجتماعي الثقافي. وذلك مع دراسة الوضع الاجتماعي الثقافي للدراعمة، والسُّبُل التي بوَّأتهم المنزلة الوسطى بين خريجي المدارس المدنية والمعاهد الدينية.

وتتنامى هذه الدراسةُ في سياق الدراسات المعنيَّة بفكر النهضة وإشكالاتها وبتاريخ التعليم العربي، ويمكن عدُّها مُكَمِّلة لدراسة أخرى مهمَّة سبقتها في هذا المضمار، هي دراسة الباحثة الأمريكية لويس أرويان «**التعليم واللغة والثقافة في مصر الحديثة (١٨٧٢-١٩٢٣م) ودور دار العلوم في تحديثها**»، والدراستان لبنة مهمَّة في قراءة وثائق تلك الحقبة واستجلاء وقائعها وتبيُّن مآلاتها. ومن أبرز ما تميَّزت به دراسة كالمباش محاولات التفسير الجادة التي استندت إلى القراءة الواعية واستحضار السياقات التاريخية والفضاءات الزمانية والمكانية في الكشف عن طبيعة التهجين، يُضاف إلى ذلك تحلِّي الباحثة بالموضوعية والنزاهة التي لم تَحُلْ دون نقدها الصارم للتحيزات الاستشراقية المتهافتة والأحكام الإمبريالية الجائرة، بل لم تَحُلْ دون تفويقها سهام النقد لتحيزات بعض الليبراليين والمتغربين المصريين والوقوف على مراميهم ودوافعهم، كل ذلك بأناةٍ وحرصٍ بالغٍ على التمسُّك بالحياد العلمي، ولم يكن ينقص هذه الدراسة سوى محور تطل فيه الباحثةُ على محتوى مقررات المدرسة، ومصنَّفات أساتذتها، وترجماتهم التي لعبت دورًا مهمًّا في التعليم والتثقيف، فضلًا عن جهود خريجيها وأعلامها في خدمة التعليم والثقافة والتراث العربي، وهو محور ضروريٌّ يؤكد عمليًّا دور المدرسة المؤثِّر.

لقد وُفِّق إلى ترجمة هذه الدراسة باحثٌ أكاديميٌّ قديرٌ، هو الدكتور أحمد محمود إبراهيم، أحد أبناء دار العلوم، وهو مترجم رصين شهدت له ترجماته بالتميُّز والتخصُّص في تاريخ الأفكار والمذاهب الدينية. وقد نشر له المركز من قبل ترجمتَهُ لكتاب «**قال رسول الله: شرح الحديث في ألف عام**» لجويل بليشر، وهو الكتاب الحائز على جائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي لسنة ٢٠٢٣م، وترجمتَهُ لكتاب «**الفقه والدولة والسلطان: الدولة العثمانية وصناعة الفقه الإسلامي**» لسامي أيوب، وغيرهما.

إن أطروحة هذا الكتاب برؤيتها المميزة وأدواتها الفاعلة لَتَتَّسق وتنتظم في الإطار العام للمشروع الفكري الذي يتبناه **مركز نهوض للدراسات والبحوث** ويسعى جاهدًا إلى تيسيره وجعله في متناول القارئ العربي، ولا يخفى أن مُشْكِلَ التعليم في سياق النهضة والتداخل بين الدِّيني والمدني أو بين الدِّيني والسياسي يُعَدُّ من صميم اهتمامات المركز، الذي صدرت عنه من قبل عدَّة دراسات تنشغل أساسًا بهذه الثنائية، كما صدرت عنه دراساتٌ مباشرةٌ عُنيت بالتحديث والحداثة؛ لعل من أبرزها: «**الإسلام والتحديث: مشروعات التجديد في العالم الإسلامي (١٨٤٠–١٩٤٠م)**» لتشارلز كورزمان، و«**أثر مدرسة الحقوق الخديوية في تطوير الدراسات الفقهية**» لمحمد إبراهيم طاجن، و«**إحياء التشريع الإسلامي: استقبال القانون الأوروبي والتحولات في الفكر التشريعي في مصر**» لليونارد وود، و«**إسلام الدولة المصرية: مفتو وفتاوى دار الإفتاء**» لجاكوب بيترسون، وغيرها من الكتب والدراسات المنشورة على الموقع الإلكتروني للمركز.

ومركز نهوض للدراسات والبحوث إذ يهدي قُرَّاءه والمكتبة العربية هذه الدراسةَ الجديدة النافعة، ليرجو أن يكون قد سَدَّ ثغرةً مهمةً ولبَّى حاجةً مُلِحَّةً إلى هذا النوع من البحوث، وأن يكون بسبيل إثراء الحوار والنقاش حولها، والتحفيز إلى الاهتمام بمشكلات النهضة اهتمامًا علميًّا حقيقيًّا.